تاريخ الارسال:2018/04/24 تاريخ النشر : مارس 2019

صورة المقاومة في الأغنية الأوراسية الثورية

د. جمعة مصاص

جامعة خنشلة

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى رصد صورة المقاومة في الأغنية الأوراسية الثورية؛ من خلال نماذج غنائية شعبية خاصة من خلال التطرق إلى كيفية تجسيد الأغنية الثورية الأوراسية لصورة المقاومة وكذا إلى الدور الهام الذي اضطلعت به المقاومة من خلال الوظيفة الإعلامية واللغوية التواصلية، وفي الأخير الوظيفة الترغيبية، و التطرق إلى النموذج المخالف في الأغنية الثورية الأوراسية المتشبعة بالثورة التحريرية.

الكلمات المفتاحية: صورة؛ المقاومة؛ الأغنية ؛ الأوراس؛ الثورة.

Abstract:

This article aimed to capture the image of resistance in the song Eurasia Revolutionary ; through popular lyric models, addressing how the revolutionary song Eurasia, reflected the image of resistance as well; that the important role played by resistance through the communicative and linguistic function of the media.

The corresponding and opposite model in the revolutionary Eurasia song saturated with the editorial revolution.

Keywords: Image; Resistance; Song; Auras, Revolution

توطئة

تمثل الثورة الجزائرية بزخمها وعنفوانها وشعبيتها، نقطة تحول في مسار المجتمع الجزائري، بل ألهمت الشعوب الخاضعة للاستعمار لافتكاك حريتها، بعد أن تأثرت بالنموذج الثوري الجزائري.

وقد ألهمت الثورة الجزائرية الأدباء والفنانين الجزائريين والعرب، فمضوا يستلهمون من بطولاتها أجناسا أدبية وفنونا درامية، ولقد كانت المقاومة الشرسة التي قوبل بها الاستعمار الأثر الكبير في نفوس الثوار، والشعب على حد سواء، فالفن المقاوم " ينبغي أن يرتكز أولا إلى هوية فنية خالصة، لكي يمنح الاقتناع بعدالة القضية التي يؤمن بها"[1] فكانت الأغنية الثورية دفعا معنويا قويا للثوار، يستمدون منه طاقتهم، خاصة وأن الأغنية الثورية الأوراسية جسدت صورة المقاومة وتداعياتها على الشعب الجزائري بكل أطيافه.

وقد لقي الاستعمار الفرنسي منذ وطئت أقدامه أرض الجزائر؛ أنواعا شتى من المقاومة الرافضة لوجوده باعتباره كيانا دخيلا على التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري، فباءت كل أنواع السياسات التي اتبعتها فرنسا لتدجين الشعب الجزائري وإدماجه في المنظومة الفرنسية.

والمقاومة هي جميع الأعمال الاحتجاجية التي تقوم بها مجموعات ترى نفسها تحت وطأة وضع لا ترضى عنه. فالشعوب تقاوم من يحتل أراضيها. وتختلف الأساليب من العصيان المدني إلى استخدام العنف والعنف المسلح وما بينهما من درجات[2]. وهكذا فقد تطور هذا المفهوم، وغدا مرتبطا بمجموعات منظمة ترى نفسها سليبة الحقوق فتمارس فعل المقاومة كرد فعل عنيف ضد الأوضاع القائمة: كما هو الشأن في "المقاومة الفلسطينية"، ويراها عزالدين المناصرة "حالة أبدية في الإنسان، وليست حالة تاريخية فقط. فالإنسان في المسافة الفاصلة بين الولادة والموت أي مسافة الحياة، يتحرك ليحقق أحلامه ورغباته، لكنه يصطدم بالعوائق، فيقاوم هذه العوائق ليحقق الأفضل، ويعلن الخروج ..على الاستبداد والاحتلال والقهر والاضطهاد والتمييز العنصري، وعلى الثقافة المدجنة"[3] ليحقق كينونته وانتماءه إلى هويته العربية الإسلامية.

في مفهوم المقاومة:

لمفهوم المقاومة دلالات ومعان عديدة في الأدب والسياسة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وهذا تبعا لتباين التعريفات في كل مجال، وتظل " المقاومة من القيم التي يهتم بها الأدباء ضد الاضطهاد الذي يرتكبه الآخرون في جيل أو وطن"[4]، تبعا للظروف السياسية والتاريخية التي استهدفته.

أ- المقاومة لغة

ورد في معجم لسان العرب" قاومه في المصارعة وغيرها، وتقاوموا في الحرب، أي قام بعضهم لبعض"[5] للمبارزة أما في معجم اللغة العربية المعاصرة فـ" قاوم، يقاوم من مقاومة وقواماً، فهو مقاوم..وقاوم العدوّ: واجهه، وضاده ومنه، قاوم العدوان"[6]، فالمعاني اللغوية تفيد وجود طرف ضدي ثان يمثل سلطة قوية، تمارس ضده المقاومة.

ب-المقاومة اصطلاحا

تعرف المقاومة اصطلاحا كما جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة" مقاومة مصدر قاوم، وهي صعوبة تواجهها قوة معينة، والمقاومة هي المعارضة ورفض الخضوع لإرادة الغير"[7]، الذي يمثل قوة دخيلة على المجتمع المتلاحم، وقد يشكل خطرا على كينونته ووحدته.

لقد كانت الأغنية من بين الفنون التي توشح بها العمل الثوري، حيث "يقع الغناء الثوري الشعبي الجماعي في قلب الغناء المقاوم، سواء أكان حديث أم فولكلوريا، وسواء صاغه مؤلفون مجهولون، أم صاغه شعراء لهجيون معروفون"[8]. وهكذا تتوحد في الغناء الثوري الفردي والجماعي"المشاعر البشرية ضد الدكتاتورية والاحتلال والقهر الطبقي، سواء أكان هذا الغناء فولكلوريا أم حداثيا، فالمقاومة الغنائية هي: الرفض والتمرد، وفتح شرفة لأمل واقعي"[9]، فالإنسان الحر رافض لكل أشكال التبعية والاستعباد ويعشق الحرية، ويموت من أجلها.

1- تجسيد الأغنية الثورية الأوراسية لصورة المقاومة:

إن الأحداث المتسارعة للممارسات اللإنسانية التي سلطها الاستعمار الفرنسي ضد شعب اعزل بسيط ألهمه أغانٍ شعبية ثورية حملت في طياتها معاناة اليتامى والأرامل والثكالى والمسحوقين، كما عبرت عن بصيص الأمل في التخلص من هذا الاستعمار الذي عاث فسادا في البلاد والعباد.

إن صورة المقاومة في الأغنية الثورية الأوراسية تتجسد في إشعال فتيل المقاومة والحرب ضد الاستعمار؛ والإسهام في رفع روح المقاومة والتحدي ضد من يقف في وجوه الأحرار في كل زمان ومكان.

لقد غدت الأغنية الأوراسية الثورية بفضل ارتباطها بالأوراس وتلاحمها بجذوره رمزا أسطوريا أضفى إليها الكثير الكثير..كيف لا و" في البدء كان (أوراس)، وفي المنتهى لا يزال(الأوراس) رمزا ساحرا، يأسر الشعراء ويسكن أشعارهم في هذا الزمن العصيب" [10]، وغدا رمزا لانتصار الشعوب على مستعمريها.

فألهمت الثورة التحريرية الجزائرية الأدباء والفنانين في كل بقاع المعمورة؛ فتغنوا ببطولات مجاهديها وتضحياتهم وبذلهم النفس قربانا للوطن المفدّى، ونسجوا من وقائع المعركة أجناسا أدبية وأشكالا فنية خلدت في التاريخ الثوري للإنسانية.

ولقد ارتبطت جبال الأوراس بتاريخ ثورة عظيمة شهد لها العالم بأسره، ثورة تركت بصماتها على الثورات التحريرية في العالم المعاصر فكانت عرَّابة الثورات.

من هذا المنطلق تشبعت الأغنية الثورية الأوراسية بزخم وعنفوان الثورة الجزائرية التي كانت منطقة الأوراس، منطلقا لها وحصنا منيعا من حصون الثورة..وقبل ذلك مركزا من مراكز المقاومة الشعبية عبر العصور فتضمخت بأريج عطرها المنبعث من أرض المعركة دافعها إيمان قوي بالله وتمسك شديد بالأرض وقيم الوطن؛ فلا يكاد يخلو بيت من شهيد أو مجاهد؛ فكانت الأهازيج والأغاني الثورية متنفسا يعبر بها هؤلاء المضطهدين عن ألامهم وآمالهم.

إن صورة المقاومة الجزائرية لم تبدأ و لم ترسم نفسها مع بداية الثورة التحريرية المباركة، بل كانت بداياتها مع تعاقب الاستعمار على الجزائر منذ 1926 بدءا من الوندال إلى الفنيقيين ولكنها تمظهرت أكثر في أشكال تعبيرية مختلفة مع دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر وانطلاق الثورات الشعبية مثل ثورة الزعاطشة، ولالّا فاطمة نسومر وبوعمامة..الخ.

ولعلّ الأغنية الشجية التي كانت تردد في كل البيوت الجزائرية:

يَا رَبي سِيدِي واشْ عملتْ أنا ووِلِيدِي

ربيتُو بيدي وفي الأخير أداتوُا الروميَّة

هي ترجمان حقيقي لمأساة الكثيرات من الأمهات اللائي فقدن أبناءهن بفعل التجنيد الإجباري إبان الحرب العالمية الأولى.

2- وظائف الأغنية الثورية الأوراسية:

اضطلعت الأغنية الثورية الأوراسية بوظائف عدة منها:

أ- الوظيفة الإعلامية:

حيث انبرت لإعلام المجاهدين والثوار بتحركات العدو، وكل المستجدات بالمنطقة والتحذير من أي طارئ أو حصار قد يكون خارج الحسبان :

الحَاج لخضر مُولْ الشاش لصفرْ ما تعقبشْ اليُومْ علَى المعذرْ
أصبَحْ امسركَلْ بالعسكرْ هيَّـــا لُـــولادْ الله ينصـــر [11]

كما سجلت الأغنية الثورية الأوراسية من خلال تسجيل وقائع الثورة ومعاركها في حيزها الزماني:

انهارْ الحدْ الكُوبتير تدِّي وترذْ
الله الله على مصطفَى وأحمدْ[12]

وحيزها المكاني:

جيتْ علَى بوحمامة أَلقيتْ العسكرْ أغمامَة
يا خُوتي واش مالهانَة أولادْ الشهداء لتامَى [13]

كما تتولى الأغنية الثورية الأوراسية تبليغ الجند المعنيين بقضايا معينة كموت أحدهم:

يَا بوذراع خلِّي خمسَة والطّريق تحتَ الشجرة
سي أحميده رايسْ اللَّجنة قالُوا ما زالْ في الحياة[14].

ب- الوظيفة اللغوية التواصلية

لقد كانت التعبئة الشعبية التي قامت بها الأغنية الثورية الأوراسية، كبيرة ببثها الأغاني الثورية الحماسية التي أســـهمت في تأجيج الثورة ضد الاستعمار؛ حيث سرعان ما يتلقفها المتلقي ويحفظها بالنظر إلى عفويتها وبساطة لغتـــها وعاطفتـــها الصادقة المعبرة عن الحال؛ فاستعملها المجاهدون شيفرة يتناقلها المجاهدون بين بعضهم البعض حيث تتم لغة التواصل بينهم بقيام أحد المعنيين بترديد الأغنية حتى في حضور الاستعمار :

يا بنْ بُولعيد يا أخُويا سَرحْ للجيشْ الليلَة يمشِي
البيعَة راهي مشاتْ ونبدلْ قشِي

ثم تقوم الأغنية الثورية الأوراسية باستنطاق جبل الأوراس :

ياجْبَلْ لُوراسْ كلُّ شجرَة بالتّراسْ
أخرج يا قرينْ بلقاسم راحْنَـــا لباس [15]

ويتم التواصل أيضا بمخاطبة الأغنية الثورية لمناطق بعينها كانت مسرحا للمعارك بين المجاهدين والاستعمار:

جَبيتْ علَى أولادْ عبْدِي الميمَة رانِي وَحْدي
نَلْقَى الجيشْ أمْكَنبْي سرّبْ يامحمد أرويبي[16]

وفي مقام آخر عرض لحال الثوار في الجبال:

سَركْلُوا علينَا بالسِيلانْ والعسَّة ساليقانْ

سَالُولي علَى هَذوك الشُبّان يالميمَة هذا اللّي كَانْ [17]

وقد تفطنت فرنسا إلى كون الأوراس هو محرك الثورة فبادرت إلى محاصرته جوا وبرا فكانت الأغنية الثورية الأوراسية سفيرا لنقل الأخبار والمعلومات اللازمة:

جَاتْني رسالَة من التَّلْ أَعْلىَ لوراسْ راهْ مْسركَلْ
سالُولي عَلَى لعراشْ أُوكَلْ كثرْ السُوَال عَلَى امَّاليَّا[18]

جـــ- الوظيفة الترغيبية :

استطاعت الأغنية الثورية الأوراسية أن تلج إلى أعماق المتلقي من خلال الترغيب في الجهاد والالتحاق بالجبل لاســـتعادة الكرامة والحرية واعتبار ذلك جهادا من أجل الدين والوطن:

زُوجْ اذراري طلْعوا لجبالْ والغابَة غطتْ عليهُم
إذا عَاشُوا الحرية ليهم وإذا مَاتُوا الجَنة ليهم[19]

ولرمزية المكان أيضا حضور في الأغنية الثورية من ذلك:

يَا خَنشْلة يالقبليـــــة واتُوكْ بالنـــوارْ
أحْنا اذرارِي شاويَّـــــــة واطلعنا للجبالْ صغارْ[20]

كما تعمل الأغنية الثورية الأوراسية على الترغيب في انتهاج القوة ضد الاستعمار:

أنَا غريبْ خارجْ وَطْني يا طريقْ اللّيلْ اللّي ذَهبتْلِي
كَنشيْ اتصالْ أَوصَلْني أَنا جندِي اندَافعْ علَى وَطْني
هو خيرْ من الدّنيا وأَهلِي وأَمَّاليَّ

إن عامل الترغيب في الالتحاق بصفوف جيش التحرير، شكل بؤرة جذب قوية في منظومة الثورة التي صهرت كل فئات الشعب في بوتقتها، كما كان من بين العوامل الأساسية في نجاح الثورة الجزائرية بالرغم من اللا تكافؤ في العدة والعتاد :

سَلَّم يَا دِيغُـــولْ هذَاك اللّي كَانْ
الجَزائرْ ولدتْ جيلْ راسُو عريَـــانْ

ويوجه الخطاب الترغيبي إلى فئة معينة بعفوية:

يَا اذْرارِي يا الشَّاوِيَة
نَاقلينْ لعشَارِيَّة
حَاربُو ولدْ الرُومِيَّة
يا وليدِي ياوليديَّة[21]

النموذج المخالف في الأغنية الثورية الأوراسية

وجد الحماس لمقاومة الاستعمار في حنجرة المغنيين الشعبيين والأشعار التي صدحت بها حناجرهم القوية الصافية؛ منفذا هاما لدعم الثورة والتأكيد على مبادئها؛ غير أن هذه الأغاني الشعبية الثورية الأوراسية، لم تكن كلها ممجـــدَةً للـــدور الايجابي الذي يقوم به الجندي في ساحة المعركة، بل كان هناك وجه آخر موشح بالسواد والخزي والقتامة؛ إنه النموذج السلبي المضاد للمقاومة والثورة.

في هذا النموذج المضاد للثورة، تختفي معاني الاعتزاز والفخر، وتتلاشى صور المدح والتمجيد في سبيل الوطن؛ فتحل محلها عبارات الهجاء والنقد والتحقير وقد تصل الأمور إلى " ذبح 'النموذج السلبي' الذي هو من الأصل الجزائري الذي انضمّ إلى العدو، وطرح وسائل الإغراء التي دفعت هؤلاء إلى الانضمام إلى العدو:

ياطفلَة يَا برَكَاهُمْ
القُومِيَة واشْ أداهُم
أَدْوَاهُمْ الموسْ
والوَادْ احذاهُم"[22]

في هذا المقطع تبرير لخطاب العنف وفعل القتل الذي طال الموالين للاستعمار، ولعلّ التوبيخ المتفق عليه من كل أطياف الأمة الجزائرية لتجريم هذا الفعل، وجعله وصمة عار لا تفارقهم هو الذي حدا بأحد الشعراء الشعبيين للقول:

القُومِيَّة لَعمَى يعمِيكُم فرنْسَا ما أدومْ عليكُم
يحيا جيش التَّحرير وهو إِعذَّبْ فيكـــــُمْ
القومِية لَعمَى يعميكُم الشهريَّة مادُومْ عَليكُمْ
جيشْ التَّحريرْ حَالَف فيكُمْ [23]

وهكذا استطاعت الأغنية الثورية الأوراسية من إيصال الخطاب الثوري ومؤازرة الثورة والثوار، ومن هنا فإن الحفاظ على الأغنية الثورية الأوراسية بين الأجيال هو احترام للتاريخ وصون لذاكرة الجزائر وتفعيل للحركة التواصلية بين الأجيال، إنها حفاظ على الأوراس كأيقونة رمزية لكل الثورات والمقاومات ضد الظلم والاستعباد؛ ليبقى الأوراس " الوشم الخالد في الذاكرة الثورية العربية والإسلامية والإنسانية وهو شهادة ميلاد الثورة المعجزة ومسقط رصاصها، وكعبة الثوار الميامين"[24]، وهكذا ظل شعر المقاومة بأهازيجه الفصيحة والشعبية "يعبر عن نبل الظاهرة التي أنتجته: ظاهرة الدفاع عن النفس، والحق لرد العدوان عن النحن، ورفع أذاه عن البلاد والعباد".[25]، ليبقى هذا النوع من الشعر المقاوم شوكة في حلق المعتدين، لا تستتب لهم الأمور مهما طال الزمن.

نخلص في الأخير إلى أن صورة المقاومة تجسدت في الأغنية الثورية الأوراسية، من خلال إسهامها في إذكاء جذوة الثورة التحريرية وبث الحماس في نفوس الثوار، من خلال اضطلاعها بوظائف عدة طبعت روح المقاومة الشعبية ومدّها ببعدها الإيديولوجي في مناهضة الاستعمار وهي الوظيفة الإعلامية والوظيفة اللغوية التواصلية، إلى جانب الوظيفة الترغيبية. وقد صاحب الروح الحماسية للمقاومة تحليل للنموذج السلبي المخالف في الثورة، والذي كرس تواجد الاستعمار والقبول به، فكان محل توبيخ وإذلال وقهر من طرف الثوار والشعب على حد سواء، قد يصل فيه خطاب العنف أوجه ليستأصل وجوده لأنه يمثل خطرا حقيقيا على الثورة والثوار.

تاريخ الارسال:2018/04/24 تاريخ النشر : مارس 2019

قائمة الهوامش

[1] صالح أبو أصبع وعز الدين المناصرة ومحمد عبيد الله: ثقافة المقاومة في الآداب والفنون(تحرير ومراجعة) ج1، أوراق مؤتمر فيلادلفيا الدولي العاشر- المؤتمر العلمي لكلية الآداب والفنون 25- 28 أفريل 2005، جامعة فيلادلفيا، كلية الآداب والفنون، د.ط/ 2006، المملكة الأردنية الهامشية، ص 299.

[2] ينظر: الموسوعة الحرة وكيبيديا، متوفر على الموقع: /https://ar.wikipedia.org/wiki

[3] صالح أبو أصبع وعز الدين المناصرة ومحمد عبيد الله: ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ج1،(تحرير ومراجعة)، جامعة فيلادلفيا، كلية الآداب والفنون، د.ط/ 2006، المملكة الأردنية الهامشية، ص 299.

[4] صالح أبو أصبع وعز الدين المناصرة ومحمد عبيد الله: ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ج2،(تحرير ومراجعة)، أوراق مؤتمر فيلادلفيا الدولي العاشر- المؤتمر العلمي لكلية الآداب والفنون 25- 28 أفريل 2005، جامعة فيلادلفيا، كلية الآداب والفنون، د.ط/ 2006، المملكة الأردنية الهامشية، ص 130.

[5] ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، ج10، دار صادر، لبنان، ط4/ 2005، مادة (ق و م)

[6] أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1/ 2008، عالم الكتب، القاهرة، مصر. باب (قاوم)، ص1875.

[7] المصدر نفسه، ص 1879

[8] صالح أبو أصبع وآخرون، ص300.

[9] المرجع نفسه، ص 300.

[10] يوسف وغليسي:سيميائية الأوراس في القصيدة العربية المعاصرة، الملتقى الدولي الخامس-السيمياء والنص الجديد- ، منشورات مخبر قسنطينة ،ص1 .

[11] العربي دحو: ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية في الولاية التاريخية الأولى بالعربية والأمازيغية، جمع وتصنيف وترجمة وشرح وتعليق وتقديم العربي دحو. منشورات جائزة الأوراس، ديسمبر 2003، ص19.

[12] المصدر نفسه،ص19.

[13] المصدر نفسه،ص9.

[14] المصدر نفسه، ص20.

[15] المصدر نفسه،ص9.

[16] المصدر نفسه،ص85

[17] المصدر نفسه،ص57.

[18] المصدر نفسه،ص78.

[19] المصدر نفسه،ص38.

[20] المصدر نفسه،ص 17.

[21] المصدر نفسه،ص67.

[22] العربي دحو: الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس من 1945 الى 1962، الجزء الأول. المؤسسة الوطنية للكتاب.ط1. 1989، الجزائر، ص 109.

[23] المصدر نفسه،ص9.

[24] يوسف وغليسي:سيميائية الأوراس في القصيدة العربية المعاصرة، ص1 .

[25] صالح أبو أصبع وآخرون: ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ج2 ، ص 159.